إنسانية الإسلام

في تكريم الجنس الآدمي

«ولقد كرمنا بني آدم»

« ١ »

الإسلام: دين علم ورسالة تحضّر

المزج بين العلم والدين والعقل والوحي من حقائق هذا الدين، كذلك فإن البلاغ الديني والعمل لكل أفراد الجنس البشري رسالة هذا الدين بعيداً عن الأنانية والعنصرية.

ولم يكن تأثير المسلمين الحضاري في الأوروبيين أو غيرهم، تعبيراً عفوياً عن تقدم عقلي أو علمي وصلوا إليه، وإنما كان هذا التأثير شرعياً، ونتيجة ضرورية، لمنطلقين أساسيين في الإسلام:

أولهما: أن الإسلام بطبيعته ليس مجرد دين بالمعنى التقليدي أو اللاهوتي للدين، بل هو دين ودنيا، وروح ومادة، ونظام، وعقيدة ومنهاج شامل يقدّم الكليات والإشارات الضرورية لمسيرة الحضارة الإنسانية، حتى تحتفظ بأساليب إنسانية، وتصل إلى غايات كريمة ديناً ودنياً.

ثانيهما: أن الإسلام ليس دين جنس أو قوم، بل هو دين عالمي يجب على المؤمنين به أن ينشروه بمفهومه الشامل -بين الناس جميعاً بالوسائل الحكيمة القائمة على الحوار والبلاغ بالتي هي أحسن..

ويعد العلم النافع للدنيا والدين -بكل أنواعه- من وسائل نشر هذا الدين، لأنه يقدم الدنيا مصحوبة بغايات كريمة، حاملاً في بنائه الفكري وجهة النظر الإسلامية للكون والحياة والإنسان!!.

ولهذه الطبيعة الإسلامية لم يكن تأثير الإسلام -كما يفهم بعضهم- في الحضارة الإنسانية تأثيراً كمّيّاً يتمثل في غرس بعض القيم أو في تنقية بعض المعارف أو تحقيق تقدم كيْفي أو كميّ في بعض العلوم والوسائل، إنما كان تأثير الإسلام أبعد من ذلك بكثير.. لقد كان ظهور الإسلام منعطفاً جديداً في تاريخ الأديان والحضارات، فإن كتاباً سماوياً ينزل في بطحاء مكة الجرداء ليقول لكل إنسان:﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ لا يمكن إلا أن يكون بداية عصر جديد، هو عصر القراءة والعقل والتضخم المعرفيّ..!!.

لقد أصبح العقل والمعرفة يتصدَّران الحياة باسم الدين، بينما كانت المذاهب والحضارات السابقة تحكمها الموروثات البالية والتقاليد الراسخة الجامدة.. جاء الإسلام أشبه ما يكون بعاصفة كونية تحارب كل ذلك، وفي كل الأماكن التي وصلت إليها إشعاعات الإسلام تأثرت به طباع الناس وعقولهم على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم..

يقول برهولت المؤرخ العالمي المشهور: «ما من ناحية من نواحي تقدم أوروبا إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضل كبير وآثارها سمة لها تأثير كبير»..

ويقول في موضع آخر: «لم تكن العلوم الطبيعية التي يرجع فيها الفضل إلى العرب، هي التي أعادت أوروبا إلى الحياة، ولكن الحضارة الإسلامية قد أثرت في حياة أوروبا تأثيرات كبيرة ومتنوعة».

وها هي أمريكا وأوروبا تخترع اتفاقية لحقوق الملكية الفكرية تمنعنا فيها من العلم والمعرفة، لكي نبقى فقراء ومستوردين معتمدين عليهما..

وبالتالي ننتهي إلى أن نكون خدماً أو عبيداً للحضارة الغربية، ويفرض علينا الجهل والتخلف..

فأين حضارتنا وديننا من عقائد هؤلاء وحضارتهم؟!!.

«٢»

الإسلام رسالة عالمية تخاطب كل الناس

■ جاء الإسلام رسالة إنسانية عالمية لكل الناس، وليس للعرب وحدهم (مع أنهم طليعة الدعوة) بل هم فيه سواء مع كل الناس تحدد مكانتهم (التقوى) وما يبذلونه في سبيل هذ الدين الذي شرَّفهم الله به.

■ ونستطيع القول: إن الدين الصحيح منذ آدم إلى محمد (عليهما الصلاة والسلام)...

كان دعوة مفتوحة لكل الناس؛ فمع أن يوسف عليه السلام من بني إسرائيل، وهو الابن الأعز لدى يعقوب عليه السلام، إلا أنه استغل وجوده في السجن المصري ودعا المصريين إلى عبادة الله الواحد القهار: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾. (يوسف: ٣٨).

وكان في بيت فرعون مؤمنون يكتمون إيمانهم، على رأسهم آسية امرأة فرعون نفسها رضي الله عنها، ومنهم ذلك الرجل الذي كان يكتم إيمانه، وأنقذ الله موسى على يديه من القتل، وعندما جاء عيسى عليه السلام رسولاً لمدة محدودة جداً لا تزيد عن ثلاث سنوات وثلاثة شهور وثلاثة أيام لعلاج خراف بني إسرائيل الضالة، استقبل على مائدة دعوته غير الإسرائيلين.. مع أنه عليه السلام قصد بدعوته -بالدرجة الأولى- قومه بني إسرائيل.

■ وعندما جاء الإسلام وهو خاتم كل الأديان -وآخر حلقاتها الموصولة: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ كان ضرورياً أن يكون عالمياً؛ لأنه كلمة الله الخاتمة وحجته البالغة إلى يوم القيامة. ولأن طبيعة مبادئه تتجه إلى العدل المطلق والرحمة المطلقة وإنقاذ كل الناس.

■ إن القرآن الكريم وهو المصدر الأول للإسلام -رسالة عالمية، والرسول محمد صلى الله عليه وسلم رسول للعالمين رحمة وبشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين والمنافقين.

■ وبعد صلح الحديبية وبدءاً من السنة السابعة للهجرة بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم في المجال التطبيقي يحقق عالمية الدعوة، ويخرجها من نطاق الجزيرة العربية حتى يحقق بُعدها الإنساني العالمي غير المحدود بالمكان أو القوم أو الزمان فأرسل عليه السلام رسله يحملون كتبه إلى الملوك والرؤساء والأمراء في عصره، لا يفرق في دعوته بين قيصر ملك الروم وكسرى إمبراطور الفرس، وأمراء الحدود كالغساسنة والمناذرة، ثم جاء أصحابه من بعده رضوان الله عليهم وأكملوا المسيرة.

وهكذا كان الإسلام فكراً وتطبيقاً عالمياً منذ نشأته.

❖❖ ❖❖ ❖❖

■ وليس بدعاً في ضوء العالمية الإسلامية أن تنتهج أية دعوة إصلاحية نهجاً عالمياً، لكن شريطة أن تكون رسالتها تهم العالم فعلاً، وتخدم العالم كله، وتقدم خيراً للناس، أو تحقق رُقياً لجميعهم،

قد تختلف فيه النسبة بين بلد يعلم ويعمل، وبين بلد آخر أقل علماً وأقل عملاً، لكن المهم أن تكون مفيدة لكل الناس، محققة لكل الناس الكرامة والحرية والعدل والمساواة -وبهذا تفردت حضارة الإسلام كحضارة تقوم على الحب الكامل.. والرحمة للعالمين... والدعوة إلى الحق.. بالحب والرحمة:

وصدق الله: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾.

«٣»

المسلمون والمسؤولية الإنسانية العالمية

■ من أكبر آيات التسامح الإسلامي والشعور بالمسؤولية الإنسانية العالمية أن علماء المسلمين ودعاتهم عندما يعرضون لقضايا الخلل الإنساني لا يصدرون عن شعور عنصري يحصر عرضهم في المحيط الإسلامي أو القومي، بل يعملون على حل المشكلات الحضارية المعاصرة كلها..

■ وانطلاقاً من التصور الإسلامي، أدرك المسلمون أن هناك خللاً وقع في المسيرة الإنسانية نتيجة التحيز للعقل والمادة تارة، والتحيز للروح والغيب تارة أخرى.

■ وهذا التحيز يصيب الحضارة الإنسانية والبشرية بالشلل النصفي لأن الروح، أو الغيب المطلق لا ينفصل عن العقل والمادة والنسبية.

■ لقد كان الاسلام -كما يصفه أحدهم- حافزاً على تشكيل كيان متميز لم تستطع تقلبات الزمن والاحتكاك بالحضارات المختلفة أن تفتّ في عضده على مرّ العصور.. فإن كل شيء في الاسلام يُشَكِّل وحدة، ويعبر في الوقت نفسه عن وحدة، ففروض العبادة تعبر بطريقة ظاهرة، بل بطريقة مادية عن التماسك والالتحام، فالمسلمون يسجدون في صلواتهم خمس مرات يومياً في ساعات متماثلة تقريباً، وفي اتجاه واحد نحو مكة.

■ ويقول الكاتب والصحافي السويسري الكبير الذي هداه الله إلى الإسلام (روجيه دي باسكيه) في كتابه (إظهار الإسلام) [١].

لقد جاء الإسلام إلى الناس لمساعدة الإنسانية على عبور هذه المرحلة الأخيرة من التاريخ العالمي دون أن يتعرضوا للضياع، وباعتباره الوحي الأخير في سلسلة النبوات، فإنه يقدم وسائل لمقاومة الفوضى التي تسود العالم حالياً، وإقرار النظام والنقاء في داخل الإنسان، وإيجاد التآلف والانسجام في العلاقات الإنسانية، وتحقيق الهدف الأسمى الذي من أجله دعانا الخالق إلى هذه الحياة.

إن الإسلام يخاطب الإنسان الذي يعرفه معرفة عميقة ودقيقة ويعرف وضعه بين المخلوقات وموقفه أمام الله.

بينما الفكر الحديث -على العكس من ذلك- ليس لديه معلومات دقيقة متفق عليها تتعلق بعلم الإنسان، ولم يحدث في غير الحضارة الأوروبية أن حدث تجاهل بطريقة منظمة وشاملة للتساؤل عن الأسباب التي من أجلها نولد ونعيش ونموت.

إن الحضارة الأوروبية التي أريد لها أن تكون إنسانية (أيّ عالمية ولو بالقهر) إنما تقود البشرية إلى نظام يحتقر الإنسان، ويخدعه، ثم يدمره في نهاية المطاف!! وذلك بالطبع على العكس من الحضارة الإسلامية..

حضارة بناء الإنسان.. كل إنسان.

---

(١) نشر مكتبة الشروق بالقاهرة.

« ٤ »

المصادر الإسلامية وحماية الإنسان وحرية الفكر

■ من المعروف أن القرآن والسنة هما المصدران الأساسيان للإسلام والشريعة الإسلامية والأحكام الفقهية المنبثقة عنهما.

والإسلام يكرم كل الناس بصفتهم الإنسانية، وبصرف النظر عن أصلهم وألوانهم وأديانهم.. يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾(١)... ويقول الله في القرآن الكريم أيضاً: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾(٢). ويقرر الإسلام في شريعته العَدْلَ لكل الناس، بصرف النظر عن أجناسهم وأديانهم ومدى قربهم للإنسان أو بعدهم عنه.. يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾(٣).

ويقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾(٤).

---

(١) سورة الإسراء: الآية: ٧٠ .

(٢) سورة التين: الآية: ٤ .

(٣) سورة المائدة: الآية: ٨ .

(٤) سورة النساء: الآية: ٨ .

وإذا كان الإسلام قد قرر كرامة الإنسان وأفضليته بصفته الإنسانية المطلقة المجرَّدة، كما أنه قرر العدل بين كل الناس بصفتهم الإنسانية، بعيداً عن النظر إلى أديانهم وأجناسهم فإنه قد قرر أيضاً حرية الإنسان الدينية بصفة عامة، وحرية أصحاب الأديان السابقة المقرونة باحترام أديانهم وتقديرها بصفة خاصة؛ حيثُ إن جوهر الأديان الصحيحة النازلة من السماء واحدٌ لا يمكن أن يتناقض - يقول الله تعالى في القرآن للرسول عليه السلام مؤكداً هذه الحقيقة ومعترفاً بالأديان السماوية الصحيحة السابقة، ومطالباً كل الأديان: (الإسلام والمسيحية واليهودية) بالاحتكام إلى الحق والعدل.. يقول الله في القرآن للرسول والمسلمين: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ(١) ﴾ .

ويقول: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾(٢).

ويقول: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (٣) . فالإسلام مكمل للأديان السابقة وخاتم لها، ومُطَهِّرها مما أصابها من أهواء النّاس!!.

---

(١) سورة فصلت: الآية: ٤٣ .

(٢) سورة المائدة:الآية: ٤٨ .

(٣) سورة الشورى: الآية: ١٣ .

وبالإضافة إلى هذه النظرة الكريمة السمحة إلى الأديان السابقة يؤكد الإسلام بصراحة حرية العقيدة لكل الناس، فيقول الله في القرآن:

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾(١).

ويقول القرآن أيضاً: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾(٢).

ويقول: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾(٣).

ويقول: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾(٤).

■ ولقد أخذ الإسلام بمبدأ الحرية الدينية قبل أن تعرفه دول الأرض جميعاً، وتقوم هذه الحرية الدينية في الإسلام على ثلاثة مبادئ:

١- الحرية في اختيار الدين.

٢- الحرية في المناقشات الدينية.

٣- الإيمان الصحيح ويكون مبنياً على إقناع واقتناع.

■ وبالنسبة للمبدأ الأول: وهو الحرية في (اختيار الدين) الذي يعتنقه الإنسان، فلا يرغم الإسلام ذمياً على ترك دينه واعتناق الدين الإسلامي!

---

(١) سورة البقرة: الآية: ٢٥٦ .

(٢) سورة الكهف: الآية: ٢٩ .

(٣) سورة يونس: الآية: ٩٩ .

(٤) سورة الأنعام: الآية: ١٠٧ .

■ فقد سار المسلمون على هذا المبدأ في حروبهم، فكانوا يتركون أهل البلاد المفتوحة وما يدينون به بشرط الولاء للحكومة الجديدة.

وفي ذلك يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كتابه إلى أهل بيت المقدس بعد فتحه: «هذا ما أعطى أمير المؤمنين إلى أهل إيلياء من الأمان.. أعطاهم أماناً لأنفسهم ولكنائسهم ولصلبانهم.. لا يكرهون على دينهم، ولا يضام أحد منهم».

ومن آثار الحرية الدينية ما رسمه الإسلام من حسن معاملة الذميين، إذ يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾(١).

■ وبالنسبة للمبدأ الثاني، وهو حرية المناقشات الدينية، فقد أُتيحت هذه المناقشات للمسلمين ولغير المسلمين، حتى إن الخلفاء أنفسهم كانوا يشتركون في تلك المناقشات، ويقول الله في القرآن الكريم: ﴿ **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾(٢). ويقول لأهل الديانات غير الإسلامية:﴿ **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾(٣).

---

(١) سورة الممتحنة: ٨-٩ .

(٢) سورة العنكبوت: الآية: ٤٦ .

(٣) سورة البقرة: الآية: ١١١ .

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾(١).

■ وبالنسبة للمبدأ الثالث: وهو الإقناع والاقتناع قبل اعتناق الدين الإسلامي، بحيث لا يرغم ذميّ على ترك دينه، لأنه لا جدوى من الإيمان بغير اقتناع، فالمسلم إذا كان ضعيف الإيمان مخلخل العقيدة لا يمكن الاعتماد عليه أو الاعتداد به.. فكيف بإرغام غير المسلم؟!!.. إنه لا يجوز بمنطق الإسلام!!.

ولذلك يحثُّ الإسلام على التفكير العقلي الجادّ في مخلوقات الله والإيمان إيماناً صحيحاً سليماً. فقد رأى بعض الفقهاء أن إيمان المقلّد غير صحيح، ويقول الإمام محمد عبده في ذلك: «إن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين، وإن المرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به».

وفي العصور الإسلامية القويّة ألف كثير من اليهود والنصارى كتباً في مهاجمة الإسلام والمسلمين، مثل ابن النغريلة اليهودي في الأندلس، وتحدوا مشاعر الأكثرية الإسلامية في تلك العصور، وكانت السلطة الإسلامية تحميهم من غيرة المسلمين، أو من إيذائهم، وقد قامت مناقشات دينية كثيرة بين طوائف من أهل الذمة والمسلمين، ولم يرغم المسلمون يهودياً أو نصرانياً على اعتناق الإسلام حتى ولو انتهت هذه المناقشات بهزيمة غير المسلم!!.

---

(١) سورة آل عمران: الآية: ٦٤ .

■ ومن الأكاذيب ربط بعضهم بين الفتوحات الإسلامية وانتشار الإسلام، فوقائع التاريخ تكذّب ذلك بدليل أن الإسلام لم ينتشر في هذه البلاد إلا بعد عدة قرون، وبدليل قاطع آخر هو أنه انتشر في بلاد لم يفتحها بسيوفهم المسلمون، بل انتشر نتيجة التجارة والمخالطة والمعاشرة، كما أنه ينتشر اليوم في بعض البلاد المتقدمة، مع أن الدول الإسلامية محسوبة من الدول الضعيفة المتخلفة!!.

■ وربما يرى بعضهم أن موقف الإسلام من الردّة يخالف حرية العقيدة، فالحقيقة أن هذا الموقف ينبع من تقدير الإسلام للدين من أنه عقيدة ونظام ودين ودولة، فالمرتد المتبجح بردّته والمعلن لها يتحدى البناء الاجتماعي للدولة الإسلامية، ويعمل على تقويض دعائمها، ولو أنه عاقلٌ مرتداً دون هذا الإعلان والتبجح لما ناله أذى، فالتجّسس على شؤون الناس ممنوع في الإسلام!!.

«٥»

حقوق الإنسان بين العدل والمساواة

من عظمة الإسلام أنه يمزج بين العدل والمساواة؛ فالحق أنه لا حرية ولا مساواة بلا عدل، وبلا شريعة حاكمة للناس جميعاً على قدم المساواة وكل شعارات تنسى العدل ووسائل فرضه وحمايته هي شعارات فارغة المضمون تخدع المظلومين (!!) وفي الإسلام تختلط كلمة المساواة بكلمة العدل، فكأنَّها كلمة واحدة، أو عملة ذات وجهين، وهذا الحق لا شك فيه، فالعدل يفقد معناه إذا كان لأصحاب دين دون دين أو لقومية دون قومية، أو لطبقة دون طبقة، بل يجب أن يكون مطلقاً بلا حدود كما يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾(١).

فالمساواة في الحقوق والواجبات وأمام العدالة من الحقوق الأساسية للإنسان ولا يجادل في هذه الحقوق إلا عدوٌّ للإنسانية!!.

وقد كان الإسلام أسبق من كل النظم المعاصرة، وأزْكى في تقدير هذا الحق الفطري.

إن الناس في الإسلام سواسية ولا تفاضل بينهم.. فكلهم لآدم وآدم من تراب ولا فرق بين رجل وامرأة. ،الغني والفقير سواء في القيمة الإنسانية، فلا تفاضل بين الناس في هذه الناحية إلا بالعمل الصالح والكفاءات الممتازة، وبما يقدمه كل فرد لربّه، ولإخوانه ووطنه.

---

(١) سورة النساء: الآية: ٥٨ .

لقد قضى الإسلام على الطوائف والعصبيات الجاهلية، فلا تفرقة بين الطبقات، ولا بين العبيد والأحرار.. فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرب إليه كثيراً من العبيد ويقدمهم على بعض الصحابة الأحرار، كما كان يرسلهم قادة على الجيوش التي تضم بين صفوفها خيرة الصحابة وأجلاءهم، فلا تفرقة في الإسلام من أجل حسب أو نسب. يقول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١).

ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٢).

وهذه المساواة في النواحي الإنسانية والتشريعية!!

ولم يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة، بل جعلهما متساويين في القيمة الإنسانية، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم.. في خطبة الوداع: «يا أيها الناس! إن ربكم واحد وإن أباكم واحد وكلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى.. ألا هل بلغت؟! اللهم فاشهد،، فليبلغ الشاهد منكم الغائب».

ويُروى أن أبا ذّر الغفاري تناقش مرة في حضرة النبي مع عبد زنجي، فاحتدّ أبو ذر على العبد وقال له، يا بن السوداء، ففضب الرسول عليه الصلاة والسلام وقال: «طفَّ الصاع، طفَّ الصاع (أيْ زاد

(١) سورة النحل: الآية: ٩٧ .

(٢) سورة الحجرات: الآية: ١٣ .

الأمر عن حدِّه) ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح» فحزن أبو ذر ووضع خدّه على الأرض، وقال للعبد: «قم فطأ على خدي». فليس في الإسلام إنسان أكرم من آخر بفضل حسبه ونسبه، بل الكل سواسية، ولا تفاضل إلا بالعمل الصالح فقط.

وهذا من الناحية الإنسانية البحتة..

أما أمام قانون الإسلام المساواة قائمة كذلك: قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ** ﴾[١].

وقال أيضاً: ﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ** ﴾[٢].

وقال كذلك: ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ** ﴾[٣].

وينبئنا التاريخ الإسلامي أن تلك القواعد السمحة القوية حول المساواة أمام القضاء كانت منفذّةً بحذافيرها أيام الرسول والخلفاء الراشدين، فيروى أن أسامة بن زيد وهو من أحبِّ الصحابة إلى رسول الله، جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليشفع في فاطمة بنت الأسود المخزومية، وكان قد حكم عليها بحد السرقة حيث إنها سرقت قطيفة

---

(١) سورة البقرة: الآية: ١٧٨ .

(٢) سورة المائدة: الآية: ٤٥ .

(٣) سورة النحل: الآية: ١٢٦ .

وحلياً، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنكر موقفه هذا على الرغم من حبّه له، ولم تشفع له منزلته من رسول الله، وقال له صلى الله عليه وسلم تشفع في حدّ من حدود الله؟! وقام فخطب الناس وقال: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»!!.

ولقد شكا يهودي عليا رضي الله عنه إلى عمر بن الخطاب في خلافة عمر، فلما مثلا بين يديه خاطب عمر اليهودي باسمه ولكنه خاطب علياً بكنيته فقال له: (يا أبا الحسن) حسب عادته في خطابه معه، فظهرت آثار الغضب على وجه علي فقال له عمر:

أكرهت أن يكون خصمك يهودياً. وتمثل معه أمام القضاء على قدم المساواة؟ فقال علي: لا، ولكنني غضبت لأنك لم تسوّ بيني وبينه، بل فضلتني عليه إذْ خاطبته باسمه، بينما خاطبتني بكنيتي..!!.

ويروى أن ابن عمرو بن العاص ضرب رجلاً من دهماء المصريين، حينما كان أبوه والياً على مصر، فأقسم المجني عليه ليشكوه إلى أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب)، فقال له: اذهب فلن ينالني شيء من شكواك. فأنا ابن الأكرمين؛ وبينما كان الخليفة عمر بن الخطاب مع خاصته ومعهم عمرو بن العاص وابنه في موسم الحج، قدم هذا الرجل عليهم، وقال مخاطباً عمر: يا أمير المؤمنين، إنّ هذا وأشار إلى ابن عمرو ضربني ظلماً ولما توعدته بأن أشكوه إليك قال: «اذهب فأنا ابن الأكرمين».. فنظر عمر رضي الله عنه إلى (عمرو) وقال قولته

المشهورة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً» ثم توجه إلى الشاكي وأعطاه درّته، وقال له: «اضرب بها ابن الأكرمين كما ضربك». وهكذا من الناحيتين (الإنسانية العامة) و(القضائية) تتجلى (المساواة) التي وضع الإسلام قواعدها بين الناس، فلا فضل إلا بالعمل الصالح في الدنيا والآخرة.. وأديانهم وأحسابهم موكولة إلى الله يوم القيامة، أما في هذه الدنيا فالشريعة تقوم على العدل والمساواة بين الناس جميعاً.

«٦»

رسالات السماء بين الدين والجنس

■ كان اليهود بالدين الصحيح الذي أنزله الله على موسى -الأمة المفضَّلَةَ على العالمين- فلما خان اليهود أمانَة الوحي، وحولوا الأمر إلى أفضلية عنصرية، حوّل الله الوحي عنهم إلى المسلمين العرب، وجعلهم - بالرسالة.. خير أمة أخرجت للناس.

لكن الإسلام يرفض أن يكون ذلك مرتبطا بالجنْس، بل يأمر بوضوح أن يكون ذلك مرتبطاً بالعقيدة الصحيحة والأخلاقيات والقيم، فلا خيرية إلا بالقيم المفتوحة لكل الناس، ولا يسمح القرآن بالظلم أو بالاستعلاء اعتماداً على هذه الخيرية المشروطة، بل يفرض الأدب والحوار الأخلاقي مع الجميع:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ ﴾(١).

﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾(٢).

■ ويأمر المسلمين بأن يتركوا أمر الفصل النهائي في الأفضلية لله هناك في الآخرة، وليس في هذه الدنيا وأنْ يلتزموا بالأدب مع مخالفيهم، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٣).

---

(١) آل عمران: الآية: ٦٤ .

(٢) سورة سبأ: الآية: ٢٤ .

(٣) سورة الأنعام: الآية: ١٠٨ .

■ ومأساة الإنسانية المعاصرة تتجسد في موقفين:

١ موقف أهل التوراة القوي المنظم والفاعل والمؤثر والعالمي، والآخذ بكل أسباب القوة والهيمنة، وهم الذين يفرضون المفهوم العنصري الاستعلائي اللاقيمي على العالم، وتبدو الحضارة الأوروبية مخدّرة ومغيبة أمام الضغط التوراتي الصهيوني!!.

٢ وموقف المسلمين المنهزم المتخاذل المتآكل داخلياً، والمتصارع بين أجزائه سياسياً وفكرياً.. والمتخلف حضارياً (وهم أهل القرآن الذي يحمل مشروعاً إنسانياً غير عنْصري).

■ وهذه المأساة الإنسانية المتجسدة في هذا الخلل تجعل أصحاب الموقف الأول يمتدّون في فراغ دون مقاومة تُذكر، ودون وجود حقيقي للطرف الآخر، بحيث يلْفت إليه أنظار العالم الذي يشعر بالأزمة الإنسانية المعاصرة، ويكتوي بنارها، ويكاد يبصر آفاق المستقبل المظلم الذي ينتظره.

وليس ثمة من أمل في إنقاذ سفينة البشرية إلا بيقظة إسلامية تكفل وعي المسلمين بذاتهم وحقيقتهم ورسالتهم، كأمة شهيدة على الناس؛ ابتعثها الله لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.. وتأخذ -أيضاً- بكل أسباب القوة المادية والنُظُميّة الموجودة في الحضارة الأوروبية، وتضيف إليها الأبعاد العقدية والقيمية والتشريعية المنبعثة عن التصور الإسلامي، وتمزجهما في رؤية حضارية واحدة، ومشروع إنساني يقدم البديل الحضاري لكل الناس..!!.

إن الديانة اليهودية.. من خلال التوراة والتلمود والبروتوكولات مقدم مشروعاً عنصرياً يظهر خلاف ما يبطن، بل إن فيما يظهره قدراً كافيا يؤكد عدم اهتمامه بالإنسانية، بل نظرته إليها نظرة دونية، بحيث تبدو الإنسانية بالنسبة لليهود كالأبقار بالنسبة للآدمي، فعلى الأمميين أن يعملوا ولليهود أن يأخذوا نتائج هذا العمل، ولليهودي أن يسرق مال غير اليهودي، والفرق بين درجة الإنسان والحيوان هو بقدر الفرق بين اليهود وغير اليهود، ويصرح لليهودي أن يغشى غير اليهودي، ومن العدل أن يقتل اليهودي كل أممي (أي غير اليهودي) لأنه بذلك يقرب قرباناً إلى الله، وأخيراً.. فالهدف من خلق غير اليهود (خدمة اليهود)، وقد منحوا الصورة البشرية ليسهل التعامل معهم[١]...

هذه بعض قسمات الرؤية اليهودية للإنسانية.. أما الرؤية الإسلامية فهي رؤية (مساواة قائمة على العدل ومرتبط بالعدل لا تنفك عنه) وهي مبثوثة في آيات قرآنية كثيرة، وأحاديث نبوية وشواهد تاريخية، ونكتفي منها هنا بهذه الآية الكريمة التي تعدّ قانوناً شاملاً، وخطاباً إنسانياً عاماً، وميزاناً عادلاً ثابتاً بتنظيم بكل الناس.. يقول الله في القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٢].

---

(١) فؤاد حسنين علي: اليهودية واليهودية المسيحية ص ٢٧٢ نشر معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٨ .

(٢) سورة الحجرات: الآية: ١٣ .

فالناس جميعاً سواسية، واختلافهم للتعاون والتعارف، والتفضل بالعمل المقرون بالصلاح.. وحسابهم -بعد ذلك على الله.. وأما اختلاف الألوان والأجناس فلا قيمة له أمام عدل الله وشريعته وموازينه التي تزن الأمور بميزان عادل دقيق: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1].

(٣) سورة الزلزلة: الآية: ٧ -٨ .

«٧»

إنسانيات المزج بين الدين والقانون في الحضارة الإسلامية

■ في عصور وأديان مختلفة يحصرون الدين في مكان العبادة، ويتركون الحياة للشيطان يهدم فيها الضمير والأخلاق وينشر المفاسد والشرور، أما في الإسلام فالتلازم قائم وممتدّ بين الدين والحياة والروح والضمير والقانون.. وبدون الدين والضمير لا قيمة للقانون في المحيط اللائق بإنسانية الإنسان.. وهذا التلازم مما تتفرَّد به تعاليم الإسلام!!.

■ وكما يوضح (مارسيل بوازار) في كتابه حول (إنسانية الإسلام) فإن الوحي المقدس كان -بلا ريب- الأسس الأولى للطابع الإلزامي للقاعدة القانونية، فأكسبها قوتها الخُلقية في النهج الذي يحدد العلاقات بين الأفراد والعلاقات بين الزمر الاجتماعية... فالقاعدة القانونية -بالتالي- ممتزجة وملازمة للوحي والروح والضمير..

■ وفي ضوء هذا فلا تمييز في العقيدة الإسلامية بين الموجب القانوني والواجب الخلقي، بل هما كيان واحد من شأنه أن يدفع إلى تطبيق القانون مع مراقبة الله والإحسان في كل شيء.

■ وقد ثبت من الناحية العلمية أنه لا يمكن الوصول إلى المثالية أو العالمية الحقيقية إلا بالارتفاع بالوجدان متعالياً فوق الظروف المادية الخارجية.

■ ولعل من السذاجة انتظار (مثل هذا المزج والأخلاق من كيان سياسي يقيم المجتمع على القواعد القانونية وحدها.. وقد اضطرت المجتمعات المادية القائمة على القانون وحده إلى الحديث عن (الوجدان العام) الذي يؤلف نوعاً من المقياس (للأخلاقية) المفروض فيها أن تعلّم الناس كيف يتصرفون حيال أبناء جلدتهم بطريقة تقترب بهم من الكمال، وتجمع بين القانون والمثل العليا الأخلاقية والإنسانية على النحو الذي تفرَّد به الإسلام في صناعته للحضارة.. صناعة واقعية.. لكنها -أيضاً- أخلاقية مثالية!!.

■ ويتساءل (بوزار) وهو يؤكد (إنسانية الإسلام) قائلاً:

- أليس من (الواقعية) والتقدمية أن يؤمن المرء بقيمة الإنسان وحريته وإرادته، وأن يتخيل إنشاء قانون تستطيع كل الشعوب (حتى التي تملك تدمير الإنسانية) الانضواء تحت لوائه؟.

- ولسوف يُسْهِمُ الإسلام في إنشاء ذلك القانون..

- بل إن الإسلام هو أكبر مؤهل للإسهام في هذا القانون.. القانون الإنساني الأخلاقي في نسيج واحد!!.

- والواقع أن المرء يدخل -وهو يدرس الإسلام- رحاب نظام من الأفكار يختلف كل الاختلاف عن القوانين الدينية -أو المدينة- الغربية، فالبناء القانوني أو الخلقي الأوروبي الذي يطمع أصحابه في أن يكون عالمياً يبقى بصورة رئيسية (أوروبياً) فليس فيه رجوع إلى إله يجب طاعته من كل الناس، وهو أيضاً إله لكل الناس، كما أنه لا توجد فيه أرضية اجتماعية إنسانية...

فالعنصرية هي نتيجة الحتمية؛ لأنه مرتبط بالمصلحة ومنسلخ عن الأخلاق، ولأن واضعيه -على أساس مادي قانوني- من الصعب أن يعبِّروا عن إنسانية تشريعية أخلاقية عامة.. وذلك على العكس من الإسلام.. دين الرحمة للعالمين..

«٨»

إنسانية العلم

العلم عبادة.. والعبادة علم

■ من قيمنا الحضارية التي أسدينا بها للإنسانية خدمات كثيرة، قيمة النظرة إلى العلم النافع على أنه عبادة، بل عبادة تفضل نوافل العبادات، وقد تفضل حلقات الذكر؛ لأنها -أي العبادة العلمية- عبادة بالعقل والفكر والقلب معاً.

وبينما كانت أديان أخرى وحضارات أخرى يتباهى أبناؤها بعدم إعمال العقل في فقه الكتب المقدسة وأمور الدين.. كان علماؤنا يطبقون أوامر القرآن فكراً أو سلوكاً -فيقرؤون تلبية لنداء ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ ويتعبَّدون بتحصيل العلوم تحقيقاً لقول الله في القرآن الكريم: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ وقوله تعالى لخاتم الأنبياء النبي الأمي عليه السلام: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾.

ولهذا كانت النظرة إلى العلم النافع على أنّه عبادة دافعاً كبيراً لإبداع حضارة علمية إسلامية!!

■ ومن هنا تَنَوَّعتْ فروع الحركة العلمية في ظل الحضارة الإسلامية عبر القرون كما تعدَّد أقطابها، فمن فقهاء على المذاهب الأربعة، إلى نحاة ولغويين وعروضيين ومحدثين ومفسرين ومقرئين ومتكلمين ورجال أدب وبلاغة ومؤرخين وجغرافيين وفلكيين.. إلى غيرهم من العلماء والدعاة.

وكانت الجوامع هي المراكز العلمية الأولى بطبيعة الحال، وكان جزء من كل مسجد يخصص لطلب العلم وللتثقيف العام، ومن أهم الجوامع التي عرفت في مصر في ذلك العصر جامع عمرو بن العاص الذي قام الولاة بإصلاحه أكثر من مرة، وكثرت فيه حلقات العلم فزادت عن أربعين حلقة، وكان فيه زوايا يدرس فيها الفقه بمذاهبه المختلفة، منها زاوية الإمام الشافعي ومنها زاوية المجدية (نسبة إلى مجد الدين البهنسي) ومنها الزاوية الصاحبية (نسبة إلى الصاحب تاج الدين محمد).. وكان العلم (الجوامعي) من أكبر الأدلة على العبادة العلمية!!.

■ وقد انتشرت المدارس الفكرية والعلمية بكثرة في هذا العصر وتنوعت بين مدارس شاملة تدرس المذاهب الأربعة مثل: المدرسة الصالحية، والمدرسة المنصورية، والقبة، ومدارس أخرى متخصصة في المذاهب، فللشافعية مدارسهم مثل: المدرسة الناصرية، والمدرسة الصلاحية بمصر، وللمالكية مدارسهم مثل: المدرسة القمحية والصاحبية.. وللحنفية مدارسهم مثل: المدرسة السيوفية والظاهرية، ولأهل الحديث والحنابلة مدارسهم مثل دار الحديث الكاملية، والمدرسة السلفية ومدرسة الطب بالقاهرة، ومدرسة الطب بالإسكندرية، وهناك المدرسة الفائزية بأسيوط، وكانت إسنا وأسوان من المراكز الثقافية الكبرى بمصر، وكذلك الفيوم والمنيا وقوص.

وما كان بمصر من حركة ثقافية وتعلمية كان مثله بالشام، ففي دمشق وُجدت مدارس فقهية مثل: المدرسة الصادرية، والمدرسة الغورية الكبرى، والمدرسة العزيزية، والمدرسة الأمينية، والمدرسة التقوية، والمدرسة العادلية

الكبرى، والمدرسة الشامية البرانية، كما وجدت المدرسة العذراوية والمدرسة الشريفية، والمدرسة العمرية، كما وجدت مدارس للحديث، كدار الحديث النورية، ودار الحديث الأشرفية، ومن مدارس القرآن التي وجدت المدرسة الوجيهية، كما وجدت مدارس للطب كالمدرسة الدخورية.

■ وكانت هناك مدارس شاملة بالقدس وبحماة، وبحران، وبحمص، وبحلب، وببعلبك، والرها، والمعرة، وغيرها من المدن والقرى.

وفي هذا العصر، وفي مدينة القدس التي تمثل قطب الحضارة انتشرت حركة علمية شاملة..

ففي هذه المدينة المقدسة عُني عدد من العلماء بالرياضيات، ومنهم شهاب الدين بن الهائم، شيخ المدرسة الصلاحية، وكان متقدماً في الفرائض والحساب والجبر والمقابلة، متفوقاً على أقرانه فيها، وقد انتهت إليه الرياسة فيها، ورحل إليه الناس للأخذ عنه.. ومنهم تلميذه ابن شرف المقدسي -واشتغل علماء آخرون بالعلوم الرياضية في بيت المقدس، ومنهم شرف الدين أبو عبد الله محمد الصفوي، وعلاء الدين أبو الحسن علي بن عثمان الحواري الخليلي المقدسي الشافعي، وأبو العباس المقدسي، وبرهان الدين بن أبي شريف.. وغيرهم.

❖❖ ❖❖ ❖❖

■ لقد نظرنا في حضارتنا الإسلامية -لكل العلوم بمقياس (العلم النافع) الذي يقود إلى العمل الصالح وتعمير الحياة باسم الله وفي سبيل الله وليس لمجرد المجد الدينوي واستغلال الآخرين بالقوة العلمية كما تفعل الحضارات المعاصرة..

وتلك قيمة أخلاقية كبيرة، قدمناها للإنسانية، ويجب أن نعمل على استئنافها وتوجيه الإنسانية إليها خروجاً من مستنقع استخدام العلم في تحقيق القوة لقهر الآخرين، وتخريب الحياة!!

«٩»

إنسانية الإنسان المتساوية.. في مقابل العنصرية المستعلية

تثبت الطريقة التي كان النبي عليه السلام وخلفاؤه رضي الله عنهم يخاطبون بها ملوك الشعوب غير المسلمة ورؤساءها، أنهم كانوا يعاملونهم على قاعدة المساواة الإنسانية، لا فرق بين عربي وعجمي ومسلم وغير مسلم ومواطن وغير مواطن في الاعتراف بإنسانية الإنسان...

يؤيد هذا سعي الرسول عليه السلام لكي يقيم سفارات بعد إقامة المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة مباشرة.

وكان من أهدافها العامة بعث الروح الإنسانية والتواصل الإنساني، كما كان من أهدافها الخاصة عقد هدنة أو صلح، أو المفاوضة لتبادل الأسرى، وكل هذا يصب في مجال تحقيق إنسانية الإنسان.

وكان عدد من هذه البعثات يهدف أيضاً إلى دعوة الأجنبي إلى التعرف الموضوعي على الإسلام عن طريق التقديم السلمي له، ليبين الرشد من الغي، ومن شاء -بعد ذلك- أن يكفر أو يؤمن فهو حر في اختياره!!

ويبين التاريخ أن السلطات المسلمة كانت مرتبطة بعدد من الواجبات الشرعية السلمية في تنظيم علاقاتها الخارجية، دون أن تنسى مع ذلك مهمة نشر الإسلام في العالم بالطرق الحوارية والثقافية أو غمطوه إنسانيته أو حقوقه، أو فرضوا عليه القهر الفكري أو الديني أو اعتبروه برابرة.. بل اندمجوا فيه وصاهروه وتعايشوا معه، وتساووا معه في صفوف الصلاة وفي جوع الصيام وفي مشاق الطواف إذا اعتنق الإسلام.

أما إذا لم يعتنق الإسلام فهو حرّ، وهو إنسان، وهو مسؤول عن اختياره وله ما للمسلمين وعليه ما عليهم.. الغدر بحقوقه خيانة لذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلاً عن أنها خيانة وطنية، وتفرقة عنصرية يرفضها الإسلام..

وكل ذلك مرفوض إسلامياً!!.

فإذا جئنا للموقف المقابل.. موقف الحضارة الأورأمريكية منا.. وجدنا الأمر على العكس من ذلك.

فالغرب لم يقبل منح الإمبراطورية العثمانية (حق الناس) إلا في منتصف القرن التاسع عشر مع إضافة بعض التحفظات بسبب إنسانيتها البربرية (كما يقول بوازار).. ومازال العالم الآن يقسم من كبار إلى عالم أول، وثان، وعالم ثالث، ومازال هناك من يقول إن الجنس الأبيض أفضل من الجنس الأسود أو الأصفر، ومازال هناك من يسمي المسلمين همجاً وبرابرة، ويعطي نفسه وحده صفة الحضارة وحق السيادة، وفرص المقولة المسماة بالعولمة لصالح قيم معينة وطريقة معينة في الحياة!!.

بينما كان الإسلام يعتمد المساواة الإنسانية، ويسعى للتفاعل والتكامل مع العالم، وما زال أهله وسيبقون مجردين من أي استعلاء عنصري.. لأنه فتنة منتنة، وجاهلية عفنة.. فالناس جميعاً من آدم، وآدم من تراب، وهم سواسية كأسنان المشط..

هذا هو الإسلام.. دين المساواة والإنسانية.. وهذا هو ماضي أعدائنا وحاضرهم العنصري الاستعلائي المدمر.

«١٠»

القوميات الإنسانية المفتوحة.. في الإسلام

من هدايا أوروبا القاتلة للعالم فكرة القومية العنصرية التي كانت سبباً في إشعال عشرات بل مئات الحروب، وكما يموت أولاد صانع السمّ بالسمّ أحياناً، كذلك أوقع الله بين الأوروبيين فاشتعلت بينهم حروب قومية استمرت قروناً، وظهرت بينهم نظريات كادت تقضي على الجنس البشري مثل النازية في ألمانيا، والفاشية في إيطاليا والسلافية عند الروس، ثم تطورت هذه النظريات إلى أيدولوجيات وزعت شرورها على العالم، فظهرت الطورانية في تركيا لمحاربة الإسلام، والقومية العربية اللادينية في كتابات بعض الأحزاب وبعض المفكرين، ودفعت الأمة الإسلامية. ثمناً غالياً، لأنها مشت خلف أوروبا حذوة النعل بالنعل دون التعرف على الحقائق من دينها وحضارتها.

إن الإسلام لا يحارب الشعور الوطني أو القومي أو القبلي شريطة أن يكون إنسانيا ومنفتحاً وأن يصهرني في بوتقة الإسلام لكي تكون له رسالة عالمية. ولكن يعترف بوحدة الأصل الإنساني، وبأنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالعمل والتقوى، وبأن الناس خلقوا من آدم وآدم من تراب، فليس هناك شعب مختار ولا قومية فوق الجميع كما ظهر في أوروبا، وأدى إلى كثير من الكوارث!.

أما الإسلام فقد اعترف -كما ذكرنا- بالقوميات والوطنيات، لكنه نسج منها قوة إيمانية إسلامية تقوم على الحبّ والمساواة والإخاء..

وبجميع الأجناس الإسلامية صنعت حضارتنا، وافتخر الجميع بالعروبة القرآنية المهدية.. حباً وإيمانياً، وصنعوا جميعاً حضارة الإسلام تحت راية عروبة القرآن لا عروبة أبي جهل..

فبالعرب العظماء.. وبصلاح الدين الكردي العربي.. وبالمماليك المعربين.. وبالأتراك المعربين... بكل هؤلاء الذين يقرؤون القرآن العربي.. وبكل المصلين بالكلمات العربية.. المتجهين إلى قبلة تقع في بلد عربي.. والذين يحجون كل عام إلى مدينة عربية.. ويؤدون المناسك بلسان عربي.. (دون أن يحسوا بأي شعور قومي).. بهؤلاء وبغيرهم الذين أصبحت العروبة عندهم روحاً وفكراً وولاء مطلقاً وجزءاً من العقيدة.. بهؤلاء نجح العرب في حطين وعين جالوت ومات المصريون شهداء في ليبيا.. أيام الغزو الإيطالي.. واستشهد سليمان الحلبي في مصر أيام الغزو الفرنسي.. ووقف العرب وخلفهم المسلمون جميعاً في عاشر رمضان ١٣٩٣هـ.

إن العروبة روح وعاطفة. وتفكير عربي، وانتماء عربي!

وكلمة (اللسان) في العربية تعني العضو الذي يترجم عما في الفؤاد وإلا فإن (اللسان المجرد) الذي لا يعكس فكراً ولا شعوراً ولا انتماء هو لسان الببغاء..

إن اللسان العربي في حقيقته يعني التفكير العربي، والروح العربية وأسلوب الحياة العربي.. كما يعني الإيمان بالتراث العربي.. أو بإيجاز شديد (الإيمان بروح الحضارة العربية) التي يعبر عنها اللسان العربي باللغة العربية..

وهذا وحده هو المقياس لتحديد (هوية) الإنسان العربي، ومن هنا كانت ضرورة الإسلام -كحضارة- لكل عربي، حتى المسيحي العربي، لأن الإسلام هو روح هذه الحضارة وهو فكرها وتراثها ورسالتها في المستقبل.

وقد وصل بعض المسيحيين العرب المخلصين إلى هذه الحقيقة، فاعتزوا بالإسلام، ولم يكيدوا له، أو يتآمروا عليه، بل جاهروا بحبه والاعتراف بفضله.

- إنها قوميات يقررها الإسلام..

- لكنها مفتوحة إنسانية وغير عنصرية.